



خطبة صلاة الجمعة 26 / 2 / 2021 للشيخ الطبيب محمد خير الشعال, في جامع أنس بن مالك، دمشق - المالكي

(الرفق بالضعفاء)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضل فلن تجد له ولياً مُرشدًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، وصفيُّه وخليفه، خيرُ نبيِّ اجتباه، وهدى ورحمة للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كره، اللهم صلِّ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ لَنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة].

الوعي في اللغة يدل على فهم الشيء وحفظه وفقهه والإحاطة به. والأذن الواعية هي أُذُنٌ سَمِعَتْ وَعَقَلَتْ مَا سَمِعَتْ، أو هي أُذُنٌ تحفظ ما سمعت، وتفكر فيه وتعمل بموجبيه.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نَضَرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتي فَوَعَاها؛ ثم بلغها، فَرَبَّ مُبْلَغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ» [أخرجه الترمذي والطبراني واللفظ له وغيرهما].

هذه هي الخطبة التاسعة في سلسلة عناونها (توعية)، أعرض لكم فيها صوراً وأحداثاً من علاقاتنا الأسرية ومعاملاتنا المالية؛ صحيحة مرة لنُعَمِّمَ خيرها وننشر فضلها، وخاطئة أو مخطئة مرة لنَحْدَرُ شرها ونترك فعلها؛ وفي كلتا الحالتين نفيد وعياً وفهماً.

يجب الإسلام أن يتحلى أبناؤه بالعلم، ويتزينوا بالفهم، ويتجملوا بالحكمة، ويتمسكوا بالتعقل والتدبر والوعي.

وعلى الطرف الآخر يكره الإسلام مخالطة الجاهلين، وصحبة السفهاء والمغفلين.

عنوان خطبة اليوم: الرفق بالضعفاء

الراء والفاء والقاف أصل واحد يدل على موافقة ومقاربة بلا عنف. فالرفق: لين الجانب، ولطافة الفعل، أو هو لين القول وحسن المعاملة، وهو عكس العنف.

وكل المشتقات من كلمة الرفق في اللغة تدعو إلى راحة وموافقة. فالمرْفَق مرفق الإنسان؛ لأنه يستريح في الاتكاء عليه. والرفقة: الجماعة ترافقهم في سفرك فيوافقونك وإذا تماشيتم تحاذيتهم بمرافقكم... وهكذا.

وفي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَيْهِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ» [أخرجه أبو داود] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ يُحَرِّمِ الرَّفْقَ يُحَرِّمِ الْخَيْرَ كُلَّهُ» [أخرجه مسلم، وأبو داود].

أيها الإخوة:

إن من أدب الإنسان وسمو أخلاقه أن يرفق بالناس عامةً وبالضعفاء خاصة في أقواله وأفعاله. وإن من كمال الشريعة السمحاء دعوتها لأن تكون درجات الضعفاء قريبةً من درجات ذوي القوة، وإنما يقتربون من ذوي القوة بالرفق والتراحم.

- ومن الضعفاء الذين يتأكد الرفق بهم: المساكين والفقراء؛ فيخاطبون بلطف القول، ويعاملون بالتي هي أحسن، ويعطون المستطاع من غير مَنٍّ ولا تعالٍ ولا استكثار ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ (8) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا (9) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (10) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (II) وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿ [الإنسان: 8 - 12].

وفي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في السبعة الذين يظلمهم الله في ظله حث على إخفاء الصدقة والإسرار بها: «ورجل تصدق بصدقة، فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه» [البخاري]. - ومن الضعفاء الذين يتأكد الرفق بهم: الأيتام؛ فقد كان شأن آبائهم أن يقوموا بمآربهم، ولما فقدوهم فقدوا الحنان الذي كان يسعى بحاجتهم، فأمر الله بالمحافظة على أنفسهم وأموالهم ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: 2]. ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى: 9]. ووعد كافل اليتيم بالدرجة العالية في الجنة، قال صلى الله عليه وسلم: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا» وأشار بالسبابة والوسطى، وفرَّج بينهما شيئًا. [أخرجه البخاري].

- ومن الضعفاء الذين يتأكد الرفق بهم: الموظف بالنسبة إلى المدير الذي يأمره وينهاه، فيخاطبه بلين من القول، ويعامله بالحسنى؛ فيجد من طاعته ما لا يجده إن عامله بغطرسة وجفاء.

ذكر المؤرخون في ترجمة الوزير أبي بكر بن عبد العزيز الأندلسي؛ قولهم: إنه كان يتسم في مواضع القلوب، ويظهر الرضا في مواضع الغضب، ويجتهد ألا يخرج عنه أحد غير راض، وإن لم يستطع الفعل، عوض عنه القول.

- ومن الضعفاء الذين يتأكد الرفق بهم: أهل البيت بالنسبة إلى رب البيت، فيخاطبهم باللين من القول، ويؤنسهم بما لا يخل بهيئته. وانظر إلى ما قصه الله تعالى من موعظة لقمان عليه السلام لابنه، موعظة مملوءة بالرفق والنصح والحنان: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (I7) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: 17، 18].

وفي الحديث الصحيح: أن نساء النبي صلى الله عليه وسلم كن يراجعنه في الكلام، ويتقبل منهن ذلك؛ وكان رجال قريش لا يتقبلون مراجعة الكلام من نساءهم. وفي الصحيح أيضاً: أن أنس بن مالك قال: "خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين، فما قال لي: أفٍّ، ولا لم صنعت؟ ولا ألا صنعت؟".

- ومن الضعفاء الذين يتأكد الرفق بهم: أبناء السبيل ومنهم المهجرون عن بيوتهم والتاركون لأملأكهم، فإنهم يُكْرَمون بين الناس ويُتساهل معهم في أجرة المنازل وأسعار البضائع وأتعاب الخدمة. - ومن الضعفاء الذين يتأكد الرفق بهم: المدينون المعسرون بالنسبة إلى دائنيهم، فيطالبون بالمعروف؛ وينتظرون إلى زمن الميسرة، أو يتجاوز عنهم إن كان في الدائنين فضل.

وفي صحيح البخاري: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ تَاجِرٌ يُدَايِنُ النَّاسَ، فَإِنْ رَأَى مُعْسِراً قَالَ لِفَتْيَانِهِ: تَجَاوَزُوا عَنْهُ، لَعَلَّ اللَّهَ يَتَجَاوَزُ عَنَّْا، فَتَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهُ».

- ومن الضعفاء الذين يتأكد الرفق بهم: طلاب العلم بالنسبة لأستاذهم، فيقابلهم بوجه طليق، وقول لين، ويشجعهم على البحث، ويصبر على مسألتهم، ولا يُعْنِئُهم.

- ومن الضعفاء الذين يتأكد الرفق بهم: المشتري بالنسبة إلى التاجر، فالمشتري مضطر إلى شراء المتاع الذي يحتاج إليه، ورفق التاجر يدعوه إلى أن يذكر الثمن الذي فيه ربح عادل. أخرج الإمام البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا

سَمَحًا إِذَا بَاعَ، وَإِذَا اشْتَرَى، وَإِذَا اقْتَضَى»، وفي رواية الترمذي: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «غَفَرَ اللَّهُ لرجل كان قبلكم: سهلاً إِذَا بَاعَ، سهلاً إِذَا اشْتَرَى، سهلاً إِذَا اقْتَضَى».

- ومن الضعفاء الذين يتأكد الرفق بهم: المرضى، فيحسن من الطبيب بعد أن يفحص المريض بعناية، ويتحرى الدواء الناجع له، أن يخفف عنه بالقول اللين، والأتعاب العادلة. حكى: أن الطبيب أبا علي بن جزلة كان يحمل لمن يعرفهم الأشربة والأدوية بغير عوض، ويتفقد الفقراء، ويحسن إليهم.

وكثيراً ما كان الأطباء في هذا البلد وغيره يذهبون إلى بيوت المرضى ولو بعدت لفحص عللهم ووصف الدواء الناجع لهم في الزيارة الأولى ثم للاطمئنان على تعافيتهم في الزيارات اللاحقة. وقد سميت عيادة الطبيب عيادة، أخذاً من عيادة المريض لأن الطبيب يعود المريض أي يزوره مرة وراء مرة، والأصل أن يعاد المريض في داره.

أيها الإخوة:

الطفل الصغير محتاج إلى أم ترفق به، والموظف محتاج إلى مدير يرفق به، والزوجة محتاجة إلى زوج يرفق بها، والمواطن محتاج إلى مسؤول يرفق به، والطالب محتاج إلى معلم يرفق به، والمزارع محتاج إلى تاجر يرفق به، والتاجر محتاج إلى جباة ضرائب يرفقون به، والمستفتي محتاج إلى عالم يرفق به، والضعيف محتاج إلى قوي يرفق به، والمترافعان يحتاجان إلى قاض يرفق بهما، والناس كلهم محتاجون الرفق، وضعفاؤهم أشد احتياجاً له.

والرفق ما يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه.

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئاً، فَشَقَّ عَلَيْهِمْ، فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئاً فَرَفَقَ بِهِمْ، فَارْفُقْ بِهِ».

وأخرج الترمذي عن أبي الدرداء رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرَّفْقِ فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الْخَيْرِ، وَمَنْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الرَّفْقِ، فَقَدْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الْخَيْرِ».

[الخطبة مختصرة بتصرف من مقالة للشيخ محمد الخضر حسين كما في أعماله الكاملة].

والحمد لله رب العالمين